مطبوعات حديثة

﴿ كتاب السفور والحجاب ﴾

« ألفته الآنسة نظيرة زين الدين وقد طبع في مطبعة قوزما ببيروت »
« سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م في ٤٢٠ صفحة »

قرأت هذا الكتاب لمؤلفته الآنسة نظيرة زين الدين فوجدته أشبه بمعلمة (انسكلوبيديه) أحاطت بهذا الموضوع من جميع أطرافه وتضمنت كل مايمكن ان يوجه اليه من الاعتراضات ثم الرد عليها من طريق العقل تارة ، والنقل أخرى ، وبالقضايا الخطابية أو الشعرية أحياناً كثيرة .

والكتاب عدا مافيه من تحقيق مسألة الحجاب والسفور قد أتحفنا بفائدتين جليلتين . أحببت قبل الشروع في تقريظه ان لا يفوتني التنبيه اليهما ، وشكر المؤلفة عليهما .

الفائدة الأولى ان المؤلفة في عكوفها على دراسة القرآن والحديث . واستدلالها بنصوصهما . ونزولها في مسألة السفور على حكمهما ، كانت كأنها تقول :

ان طائفتي (الدرزية) مهما كان لها من تقاليد تاريخية تميزها عن غيرها من الفرق الاسلامية ما زالت ولن تزال تستمسك مع اخوانها المسلمين بعروة الاسلام ، وتهتدي بهديه ، وتنضوي الى جامعته .

وعندي ان إعلانها هذا الامر في مثل هذه (الظروف) التي تعمل على التحليل والتركيب السياسيين — هو أهم بكثير من تحقيق مسألة الحجاب والسفور .

اما الامر الثاني او (الفائدة الثانية) التي لمحتها من خلال سطور كتاب الحجاب والسفور ، فهي لا تقل عن الفائدة الاولى شأناً وتنبيهاً لنا معشر المسلمين الذين يهمهم ان يقع إصلاحهم الاجتماعي من طريق دينهم الحنيف : ذلك ان المؤلفة الفاضلة في كتابها المذكور كانت كأنها تخاطب أنصار السفور من جهة ثم تلتفت فتخاطب العلماء أنصار الحجاب من جهة ثانية .

فتهتف بالاولين السفور بين فائلة :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

انه لا ينبغي لنا ان نستقل بالنظر في هذه المسألة الاجتماعية الدقيقة من دون التفات الى نصوص الدين . ومن دون تحكيم شريعتنا السمحة بالامر .

ثم تلتفت الى السادة العلماء فتقول :

ان السفور بين والسفوريات ياسادتي كثروا في العالم الاسلامي كثرة مطردة . وان المسألة أصبحت عملية بعد ان كانت نظرية . وان معظم الذين ينصرونها و يؤيدونها هم طبقة المسلمين المتعلمين الذين أصبح بيدهم الحل والعقد تقريباً ، والذين يعتقدون ان فكرة السفور في المسلمين ليست في الحقيقة اثراً من آثار تشهي أشخاص بل هي أثر من آثار نواميس اجتماعية وثقافية تعمل عملها قسراً .

وان من نظر في تاريخ هذه المسألة وتطورها :

من يوم أن كتب عنها قاسم امين ما كتب .

وما كان من الأتراك الكماليين .

وما كان و يكون من اخواننا المصريين الذين يزورون سورية بنسائهم السافرات . وبعد أن رفع زعيم مصر المطاع (سعد زغلول) النقاب بيده عن وجوه المسلمات اللواتي احتفلن بقدومه من منفاه .

وما فعله جلالة ملك الافغان وزوجته (ثريا) .

من نظر الى ذلك كله وما شابهه من الوقائع والشواهد علم ان الامر جد . وان سكوت علمائنا عنه ، وعدم مبالاتهم به ليس من مصلحة المسلمين ولا من سداد الرأي في شيء .

اننا أصبحنا معشر المسلمين مع مسألة السفور تجاه امر واقع . وهذا الامر الواقع هو مظهر من مظاهر القضاء والقدر الذي اعتدنا ان نقول حين توقع حلوله : « اللهم انا لا نسألك دفع القدر ولكن نسألك اللطف به » . واللطف في مسألة السفور يكون بالاقتصار فيه على ما رضيه لنا الوحي وسنه لنا السلف الصالح .

ثم كأني أسمع للمؤلفة تقول :

وها أنا ذا ياسادتي كان يمكنني ان أسفر وأبقى سالمة كما صمت فعيي ، لكنني رأيت ان أسن لنفسي ولاخواتي المسلمات هذه السنة الحسنة وهي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان نرجع في أمورنا الدينية والاجتماعية اليكم ايها العلماء فتعالجوها بحصافة عقل ، وإخلاص قلب ، وهدوء أعصاب . تعالجوها ولو بواسطة اجتماع ملّي يؤلف منكم على اختلاف مشاربكم . فتحللوا ما أحله الله . وتحرموا ما حرمه الله ، بعد ان تتذاكروا في المسألة مذاكرة برلمانية منظمة . بحيث يكون لها نتيجة عملية يمكن تطبيقها والتعويل عليها . واني أخشى يا سادتي العلماء — وقد بلغ الامر من الجرأة على السفور ما بلغ — ان يعم و ينتشر بين المسلمين كافة . وعندها يقول بعض الناس : ان السفور وقع بالرغم من دين الاسلام : بدليل ان علماءه يقاومونه ، و يكفرون أشياعه .

واني اخشى ان يقف علماء بلادنا موقفاً سلبياً إزاء مسألة السفور كما فعل علماء الاتراك . حتى آل الامر اخيراً الى انتزاع حق التكلم في هذه المسألة من ايديهم وانتقاله الى ايدي الكماليين الذين أضجرهم الجمود ، فأصبحوا على قاب قوسين من الجحود .

لا جرم ان مجرد شعور السفوريين والسفوريات بأن صنيعهم يجعلهم في حيدة عن سائر اخوانهم يزيدهم جرأة على ممارسة مخالفات أخرى قد تكون أقبح في نظركم وأنكر من مسألة السفور .

بل ان كان النقاب رُفع عن وجه التركيات بيد وطنية مسلمة في الجملة . فاني يعلم الله أخشى ان يرفع ذلك النقاب عن وجه التلميذات السوريات بيد لا تريدونها .

بيد ترفعه ثم تعمل بالسر على رفع غيره .

بيد ترفعه وتودعه بكلمات السخرية والهزء .

فالآنسة نظيرة كأنها في كتابها هذا تضرع الى علماء الاسلام قائلة :

ان السفور اذا كان ولا بد من وقوعه بين المسلمين كما تدل عليه القرائن الكثيرة فليقع بايديكم ايها السادة :

فليقع بايدي المتعممين . لا المطربشين ولا المقلنسين .

فليقع بالقدر الذين تشاؤن ، لا الغلو الذي تكرهون .

فليقع مقيداً بالشرائط والتحفظات المستندة الى نصوص الدين الصريحة . وقواعد الشرع السمحة المبجلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإلا فاني أحشى أن يقع كما وقع لدى الكماليين من دون مراعاة نص . ثم يعقبه على الاثر التبرج والخلاعة وفاحش (الدنص) .

ان السافرات أيها السادة انما يسفرن باذن اوليائهن . فمعارضتهن إذن عبث بل فضول . واذا اقترنت المعارضة بالتعبير والقذع ، سوف تؤدي الى التفرقة والصدع ، وتكون النتيجة انهيار البناء بالطبع .

هذا ما تخيلت اني أسمعه من الآنسة نظيرة زين الدين مذ حاولت تقريظ كتابها . وها أناذا الآن أرجع الى المقصود من تقريظه ووصفه . وبيان ما توخته مؤلفته في تنسيقه ورصفه فأقول :

بنت المؤلفة كتابها على اربعة اقسام :

(القسم الاول) ضمّنته جولات عامة في الحريّات على أنواعها . والدفاع عن هذه الحريات . واستنكار الحجر على العقول . وبيان ان الدين والعقل متآزران . والمقارنة بين جنسي الرجال والنساء . وغير ذلك مما هو تمهيد بين يدي موضوع الكتاب .

(القسم الثاني) يتضمن الأدلة العقلية على ان سفور المرأة (والمراد من السفور إبداء وجه المرأة فقط) ليس مما يكرهه الاسلام وانما هو أباحه لها .

(القسم الثالث) يتضمن الأدلة الشرعية على الإباحة المذكورة .

(القسم الرابع) معارضات المؤلفة لاربعة من العلماء كتبوا في موضوع المرأة وحجابها : فهي تنقل قولهم وتسهب في الرد عليهم .

اما أسلوب الكتاب فسهل الفهم . قريب التناول . ولا يخلو أحياناً من ضعف في تأليف الكلام . وخطأ او تسامح في استعمال بعض الكلمات . لاسيما العامي منها كقولها في ص ٢٦٣ (مضروب على قلبه) .

وتكثر المؤلفة في كلامها من الاستفهام والتعجيب والاستعطاف والاستشهاد باقوال الآخرين . ولا تدع التهكم والتهويل أحياناً كثيرة .

وهكذا تتفنن في تلوين الخطاب وايراد مسائل الحِجاج بحيث لا يستكمل القارئ بحثاً حتى يتشوّف لما بعده . ولا يتذوّق فائدة حتى يتلمّظ الى أخرى تليها . ثم لا يعتم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان يرى نفسه قد بلغ آخر الكتاب من دون شعور بملل او سآمة .

ومن قارن بين فوائد الكتاب ومختلف أبحاثه الدينية والاجتماعية والأخلاقية واللغوية — وبين ماهي عليه المؤلفة من السن التي لم تتجاوز العشرين لا سيما أن دراستها كانت في مدارس علمانية محضة — شك — ويحق له الشك — في ان تكون هي مؤلفة الكتاب .

وليست براهينها سواء في الوضوح والقوة وحسن الدلالة . وكثيراً ما تلجأ الى الأساليب الشعرية في مناقشاتها . كما انها أحياناً تغفل فتستدل بما لا يصلح للاستدلال . وكتاب مثله في كبر حجمه ووفرة مادته قلما يخلو من ضعف في بعض مواطن الاستشهاد . ولو اقتصرت المؤلفة على براهينها القاطعة — وما اكثرها في كتابها — لكان اجدى نفعاً . وأشد في النفوس وقعاً .

و يظهر من مطاوي كلام المؤلفة في كتابها انها انما تدعو الى سفور شرعي لا تبرج معه ولا ابتذال ، من ذلك قولها في ص ١٤٩ « انهم اصحاب حق في نفورهم من ذلك الرقص الذي أسمع به ولم أره : فهو لا يوافق أخلاقنا بل يخالف آدابنا » الى ان قالت : « تنبذ الحريات الشاذة مثل حرية الرقص ومثل كشف العورات من صدور وأعضاد . وتقصير الأثواب بدرجة عائبة والتبرج المنافي الرصانة . والخلوة بالرجال وما شاكل ذلك . وتتخذ ما يوافق تربيتنا وأخلاقنا » اه .

وأشارت في ص ١٤٥ الى ما لاصطحاب الرجل نساءه معه خارج البيت من التأثير في أخلاق الرجال فقالت : « وليت شعري هل يخطر في البال ان في العالم سافلاً ينظر الى محارم غيره نظرة سوء ومحارمه الى جانبه ؟ او لا يخطر ببال الرجل حينئذ مهما كان دنيئاً ان نظرته السيئة الى محارم غيره إذن ضمني لغيره في ان ينظر الى محارمه مثل نظرته تلك ؟ » .

ومن أدلتها المعقولة ان الشرع يهمه جداً ان يكون هناك فارق بين النساء الحرائر وغيرهن وبذلك يهاب الاشرار التعرض للحرائر : ففي القرآن الكريم « ذلك ادنى ان يعرفن فلا يؤذين » علق عدم الايذاء بالمعرفة فاذا لم تكن معرفة حصل الايذاء . وكان عمر (رضي الله عنه) يستعرض الاماء اللواتي يتشبهن بالحرائر في لبستهن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيمنعهن من التشبه بهن . والنساء المسلمات اليوم تشابهن كلهن في اللبس ، والنقاب . فاذا سفرت المسلمة عن وجهها وحده كما سمح لها الشارع عُرفت فاحترمت . وان بقيت محجوبة الوجه لم تعرف فتصبح عرضةً للاذى والامتهان وهو ما يأباه الشارع لها .

ومن أدلتها على ان عقل المرأة لا ينقص عن عقل الرجل ان الرجل والمرأة متساويان في التكليف الشرعي ومتساويان ايضاً في درجة العقاب الاخروي وهذا دليل على تساوي العقل الذي هو مناط التكليف في الجنسين .

ونقول المؤلفة : انه اذا كان هناك نقص في عقول النساء فسببه حجبهن وعدم تربيتهن وتعليمهن ، بل ذهبت الى أن في الشرع مايدل على ان المرأة اكمل عقلاً من الرجل : ذلك ان الرجل يكلف في سن ١٢ من عمره ، اما المرأة فتكلف في السنة التاسعة من عمرها .

أقول ولكن حديث البخاري صريح في نقص عقل النساء ودينهن . فكان على المؤلفة — وقد تعرضت الى هذا الموضوع — ان تفسر الحديث بما ينطبق على دعواها .

وكثيراً ما عمدت المؤلفة في استدلالاتها الى النكتة مثال ذلك ما في ص ٦٢ من ان الدين أمر الرجل بستر وجهه باللحية فهو لم يستر وجهه بها كما أمر بل حلقها والزم المرأة بستر وجهها الذي أباح الشارع كشفه لها .

ومن ذلك قولها في ص ١٣٥ « يا سيدي الرجل القوّام ! ماهذه الحياة حياتك وفي بيتك إدارة عرفية دائمة أعلنتها ضد أمك وابنتك وزوجتك وأختك خائفاً من خيانة منهن » .

ومن أساليبها التي تعمدت بها الترفيق والاستعطاف قولها في ص ١٣٦ « هي أمك التي أرتك النور وانت تحرمها إياه ... هي التي ولدتك حراً تتمتع بالشمس والهواء وانت تلقيها في أسر الحجاب فتمنعها منها ... هي التي الخ »

وفي ص ١٣٩ « وهل يجوز لك ان تعوّق نماء التكمل العقلي والادبي في جنس النساء كله لانك آنست فساداً في بعضهن ؟ او لم تأنس مثله في بعض الرجال ؟ فعلى مَ لا تعامل الجنسين معاملة واحدة ؟ » .

وخلاصة ما حققته المؤلفة في كتابها واستدلت عليه عقلاً ونقلاً ان وجه المرأة ليس بعورة ولا دليل على وجوب ستره في الشرع وقد سردت النصوص التي يحتج بها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قوم على وجوب ستر الوجه فحققت انهـا لا تدل على ستره وانما هي تدل على ستر باقي الجسد . اما ستر الوجه فان العلماء رأوا ستره نظراً لفساد الزمان . فمن يقل بجواز كشفه كما هو الأصل يذهب الى ان الزمان اليوم اشد أمناً على الاعراض من الزمن القـديم . ومن يقل بوجوب ستره يذهب الى ان الزمن أصبح اليوم اشداً فساداً وأقل أمناً من ذي قبل ؟ .

ولنا على الكتاب ملاحظات نحب ان لا يفوتنا التنبيه الى بعضها . من ذلك ماجاء في ص ٣٤٤ مذنقلت المؤلفة عبارة (ابن عابدين) وعلقت عليها ، فقد كان الأليق بالمقام عدم ذكرها كما كان الأليق عدم التعرض للاستنجاد بالسلطات . ومن ذلك ما في ص ٢٠٦ فقد نقلت عبارة علي بن ابي طالب رضي الله عنـه وهي « ما اشتبه عليك علمه فالفظه . وما ايقنت بطيب وجوهه فنل منه » مستشهدة بهـا على وجوب اطراح ما لا دليل عليه من مسائل العلم والاخذ باليقين الذي عليه دليل . مع ان الامام (علياً) يريد بقوله المذكور النصح لعـامله (ابن حنيف) الذي دعي الى وليمة خصبة فأسرع اليها . فهو ينهاه عن تناول ما فيه شبهة من الطعام . و يأمره بما كان حلالاً طيباً . ومن غلط المؤلفة او مغالطاتهـا ما جاء في ص ٣٦٢ من ان بعض المشايخ يقول « اذا خرج النساء من بيوتهن كان عليهن ان يخرجن في حفش ثيابهن » اي رذلها . وقد قال شيخ آخر « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعجبه ان لا تهجر المرأة زينتهـا » فزعمت المؤلفة ان بين القولين تناقضاً ثم قالت « مسكينة المرأة انها حائرة بين أقوال المشايخ » مع انه لا تناقض ولا حيرة : اذ ان النبي صلى الله عليه وسلم انما يعجبه من المرأة أن تتزين في داخل بيتها اما في خارجه فلا يعجبه ذلك منها وانما يعجبه ان تلبس من الثياب ما لا يلفت الانظار اليها .

وفي ص ٢١٨ أوردت المؤلفة ما قاله النسفي في تفسير قوله تعالى « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » وهذا هو قوله : « كانت جيوب النساء واسعة تبدو منهـا صدورهن وكن يسدلن الخُمُر من ورائهن فتبقى مكشوفة فأمرن ان يسدلنهـا من قدامهن » فعلقت المؤلفة نحو صفحتين على عبارة النسفي هذه وزعمت انه غيّر وبدل في تفسير الآية ولم يوضحها . مع ان عبارته على ايجازها واضحة جلية المعنى . فان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجيب شق الثوب على الصدر وكانت النساء يلففن رؤوسهن بالخُمُر فتنسدل أطرافها على ظهورهن وتبقى صدورهن مكشوفة تتراءى من خلال الجيوب فنبههن الوحي الآلهي الى ان يجعلن انسدال الخمر مما يلي الصدر لا مما يلي الظهر . ولا نعلم ماذا فهمت المؤلفة من كلام النسفي حتى أطالت فيما لا طائل تحته .

ومن أغلاطها اللغوية زعمها ان الكوع هو المرفق فيكون الساعد داخلاً في مسمى الكف فلا يكون عورة . مع انه عورة اذ الكوع في اللغة اسم للعظم الناتئ في منتهى الساعد مما يلي إبهام الكف .

هذا ومع ما في الكتاب من سهو وخطأ فان فيه من الفوائد والحقائق ما يحله المحل الأرفع من نفوس ذوي الانصاف .

« المغربي »